ظاهرة العنف: المنشأ والسلوك، دراسة تحليلية
من خلال المفكرين طه عبد الرحمن وإريك فروم

الخليل الواعر
جامعة شعيب الدكالي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة - المغرب
khalileloiaar@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/03/06	2020/04/21	2020/06/01

مُلخَّص البَحث

يروم هذا البحث دراسة العنف باعتباره ظاهرة اجتماعية ارتبطت بالإنسانية منذ القدم، ويسعى للإجابة عن مجموعة من الفرضيات التي تبحث عن أصول العنف ومنشئه، معتمدة على المقاربة الدينية التاريخية للعنف عند الفيلسوف طه عبد الرحمن، والمقاربة التجريبية للعنف عند إريك فروم. فهل يمكن اعتبار العنف حادث طارئ على الإنسانية، أم أنه يشكل سمة مميزة للإنسان؟ وما علاقة العنف بالطبيعة البشرية الإنسانية؟ وكيف يقع العنف سيكولوجيا؟

الكلمات المفتاحية: عنف؛ منشأ؛ سلوك؛ طه عبد الرحمن؛ إريك فروم.

Abstract

This research aims to study the violence as a social phenomenon that has been associated with humanity since ancient times, and seeks to answer a set of hypotheses that search for the origins of violence relying on the historical and religious approach to violence by the philosopher Taha Abdel Rahman, and the empirical approach to violence by Erich Fromm. This rises the question as to whether violence can be considered a new event for humanity, or is it a distinctive feature of the human? What is the relationship between violence and the human Manly nature? And how does violence act psychologically speaking?

Key words: violence, origin, behavior, Taha Abdel Rahman, Erich Fromm.

تمهيد:

يشكل العنف باعتباره ظاهرة اجتماعية، أحد الانشغالات الكبرى لدى المجتمعات البشرية، إن على مستوى المؤسسات التعليمية أو المؤسسات التربوية، ويرجع ذلك إلى تجلياته وانعكاساته السلبية على المجتمع. وعلى إثرها اختلفت المقاربات والمنطلقات العلمية لمعالجة هذه الظاهرة، محاولة التشخيص والبحث في أصول العنف وأسبابه وسلوكه[1].

إشكالية البحث:

هل يمكن اعتبار العنف حادث طارئ على الإنسانية، أم أنه يشكل سمة مميزة لبنية الإنسان؟ وماهي المعطيات التاريخية حول ظاهرة العنف عند الإنسان؟ وكيف يقع العنف سيكولوجيا؟ وما علاقة العنف بالطبيعة البشرية الإنسانية؟

تعددت إجابات الباحثين في حصر الأسباب الواقعية والموضوعية لظاهرة العنف، حيث يعزو بعضهم أسبابها إلى الطبيعة البشرية وتكوينها الميال إلى حب التملك والسيطرة، اشباعا لرغباتها البيولوجية، وهناك من يرجع سبب ذلك إلى فلسفة المجتمع وثقافته.

وكيفما كان الأمر، فإن ظاهرة العنف اتخذت أشكالا متنوعة، منها ما هو لفظي جسدي، ومنها ما هو نفسي جنسي، إلى غير ذلك من أشكال العنف التي أصبحت اليوم من أكبر الأمراض خبثا، بحيث استعصى على الدارسين والباحثين إيجاد حلول ناجعة له.

وانطلاقا من هذا التصور ارتأيت دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية من خلال البحث في دراستين علميتين لكل من الفيلسوف طه عبد الرحمن[2] في كتابه "سؤال العنف بين الإئتمانية والحوارية" والفيلسوف إريك فروم[3] (ت1980م) **Erich Fromm** في كتابه "تشريح التدميرية البشرية".

وموجب ذلك أنني لم أرغب أن تقتصر هذه الدراسة على رؤية علمية وحيدة، بل نظرت أنه لابد من الانفتاح على المقاربة العلمية الأخرى التي عالجت هذه الظاهرة من منظور سيكولوجي وأنثروبولوجي عبر التجارب السريرية، لأن الاقتصار على المقاربة الدينية يؤدي في النهاية إلى التضيق والتحجير في فهم الظاهرة بشكل أوسع، بغض النظر عن صحة المنطلق وأيديولوجيته؛ لكن على الأقل تناوله من الجانب الموضوعي للبحث العلمي الذي يمكن أن يكبح الباحث إن تهويلا أو تهوينا، لتكون الدراسة بهذا المنظور مستمدة من وجهات نظر متفرعة، ولا تنزوي في فرع معرفي واحد.

والدراسة تبحث في فرضية مفهوم العنف، هل هو أصيل في النفس البشرية أم عارض عليها؟ ليترتب عن ذلك، البحث في منشأ العنف وكيفية وقوعه كسلوك بشري، ومن ثم الحلول التي اقترحها المفكران طه عبد الرحمن وإيرك فروم، ثم عرض آرائهما حول هذه الظاهرة، وعرض أهم الاستنتاجات التي توصل إليه البحث. واخترت لهذه الدراسة عنوانا كالآتي: **"ظاهرة العنف: المنشأ والسلوك، دراسة تحليلية من خلال طه عبد الرحمن وإريك فروم"**.

أولا: منطلقات مفاهيمية

ينطلق كل من المفكر طه عبد الرحمن والمفكر إريك فروم لمعالجة ظاهرة العنف، من مقدمات تشخيصية محددة، نشير منها بدءا إلى ما أورده طه عبد الرحمن في مقدمته، بأن اهتمام الفلاسفة بآفة العنف جاء بحكم البحث في ضده، وضد العنف هو الدليل، ومن جملة الدليل الحوار، ومن ثم كلما وجد الحوار فُقد العنف. ومن خصائص الحوار وجود خاصية العقل، وعليه فلا عقل إلا بوجود الدليل، فيلزم من ذلك أن العنف والعقل ضدان لا يجتمعان[4].

ويفهم من هذا الكلام أن سبب منشأ العنف وتكونه منذ البدء، هو غياب العقل، وهذا العقل هو الذي ينتج بالضرورة المعرفة التي تقوم على استحضار وإعمال الدليل، وهو في حقيقته ضميمة من الحوارات التي تذيب العنف؛ أو على الأغلب يقلل من حدته نسبيا.

و يتبلور لدينا من خلال هذه التوطئة دور الفلسفة في الخوض في عمق وجذور آفة العنف وأسبابها، ومن ثم فإن غياب الفلسفة يولد العنف ويلزم من ذلك أن العنف ضد الفلسفة كما عبر عن ذلك طه عبد الرحمن، فلا فلسفة حيث يوجد العنف، ولا عنف حيث توجد الفلسفة[5].

ونستنتج من هذا أنه كلما وجدت الفلسفة والعقل والحوار، اندثر العنف واجتث من عقلية المتصف بهذا الوصف، بسبب الحوار المبني على الفهم الفاحص لدليل، والإقناع المبني على المعرفة والدليل.

والعنف في مفهوم طه عبد الرحمن هو "إيذاء ناشئ عن ظلم وجهل"[6]، ويعبر عنه في موضع أخر هو إيذاء مبني على الجهل الملكي[عالم الروح/الباطن] والملكوتي[عالم المادة/الظاهر]ومفض إلى الظلم الملكي والملكوتي"[7].

ويفرق طه عبد الرحمن بين العنف والقوة، حيث يرى أن القوة تبين شرف الرتبة بشريطة اقترانها

بشروط العدل في استعمالها لتلك القوة، خلافا لمكس فيبر[8](ت1920م) الذي يرى أن الدولة لها الحق في استعمال القوة بمفهوم العنف في أرضها لتحقيق وجودها، فإذا لم يتوفر العدل في هذه القوة تكون حينئذ عنفا مذموما، لذلك يلخص مفهوم القوة والعنف لدى الدولة في عبارة:

عنف الدولة ≠ قوة الدولة

وكلما كانت الدولة متصفة بالعدل في استعمالها لمفهوم القوة كانت الدولة قوية، وإذا خلت قوتها من العدل أضحت دولة عنيفة. لأن القوة طاقة روحية منضبطة عاقلة تحفظ بينة الذات، أما العنف فهم اندفاع نفسي غير عاقل جاهل لا يحفظ بينة الذات بل يفسدها[9].

أما إريك فروم فاختار في مقدمته أن يربط عقدا مفاهيميا بينه وبين القارئ لكتابه قبل أن يشرع في قراءته، ومن مضامين هذا العقد بسط المفاهيم، ومن تلك المفاهيم، استعماله لمفهوم العدوان بدل العنف ويقسم هذا العدوان إلى قسمين: **عدوان غير خبيث** وهو عدوان دفاعي استجابي، **وعدوان خبيث** وهو نزوع بشري تدميري ينم عن اشتهاء السيطرة المطلقة[10].

ويرى إريك أن العدوان منه ما هو جسدي وما هو نفسي ذهني، وهي الرغبة في إذلال الآخر بإيذاء مشاعره، وهو أوسع من العدوان الذي سماه السادية[11] الجسدية ، حيث يذهب إلى أن الألم النفسي يمكن أن يكون أشد من الألم الجسدي، وأورد بعض الأمثلة على ذلك بقوله:" هذه السادية الذهنية فالآباء يسببونها لأطفالهم والأساتذة لطلابهم، والأعلى مقاما للذين هم أدنى منهم، وبكلمات أخرى فهي تستخدم في أي وضع يكون فيه شخص لا يستطيع أن يدافع عن نفسه في وجه السادي، وإذا كان المعلم ضعيفا تحول الطلاب في الكثير من الأحيان إلى ساديين، ويمكن أن تتقنع السادية الذهنية بطرق كثيرة تبدو في الظاهر غير مؤذية بالسؤال، بالابتسامة، بالملاحظة، المربكة، ومن الطبيعي أن هذا النوع من السادية غالبا ما يكون أشد تأثيرا بكثير عندما تقع الإهانة أمام الآخرين"[12].

كما ذكر مجموعة من أنواع السادية المتولدة عن العدوان التدميري كالسادية الجنسية، والبدنية، والذهنية، ليتوصل في النهاية إلى أن طبيعة أنواع السادية المذكورة آنفا، مشتركة في الشغف بامتلاك السيطرة المطلقة وغير المحددة على كائن حي، سواء كان حيوانا أم طفلا أم رجلا أم امرأة[13].

ثانيا: هل العنف سمة مميزة للإنسان أم هو طارئ عليه؟

تختلف منطلقات كل من طه عبد الرحمن وإريك فروم في معالجتهما لظاهرة العنف في القدم، فطه

عبد الرحمن ينطلق من منظور ديني فلسفي، يعتمد فيه على مزيج متكامل بين النقل والعقل، بينما ينطلق إريك فروم من نظرية داروين للنشوء والتطور، بالإضافة إلى مجموعة من التجارب التي أقيمت على الإنسان وبعض الحيوانات كقردة الشيمبانزي والفئران وغيرها...،

ونبدأ أولا مع طه عبد الرحمن كيف أجاب عن فرضية، هل العنف أصيل أم عارض في تكوين بنية الإنسان ؟

يعزو طه عبد الرحمن العنف الذي دفع قابيل "العنف" إلى قتل أخيه هابيل "اللاعنف" إلى أن هذا قائم في البشرية منذ تسلط قابيل على هابيل. حيث قال: "ومن ثم فإنه يرد وجود العنف إلى الحدث الفاصل في تاريخ الإنسانية، والذي أخبرت به الأديان السماوية وهو قتل قابيل لأخيه هابيل"[14] وبهذا يكون العنف شر متسلط في الطبيعة منذ القدم وهو أحد مختبرات الإنسان وتكوينه الذي يبتلى به. فالعنف عند طه عبد الرحمن "وصف يخص الإنسان، ولا يقوم بالحيوان على توحشه، ولا بالطبيعة، على قوتها التدميرية، لأن ذا العنف يدرك أن إتيانه لعمله تصرف مؤذ، مؤثرا إتيانه على تركه"[15]. وبالتالي فإن العنف عند طه عبد الرحمن سنة كونية باقية أبد الدهر، بل لا يستقيم جمع الإنسان إلا بدوام التصدي له[16].

وبهذا يكون العنف عند طه عبد الرحمن أصيلا في بنية الكائن البشري منذ القدم كما مثله في رمز قابيل، إلا أنه ليس متشائما من عالم القابيل العنيف مادام هناك عالم آخر سماه باللاعنف ورمز له بعالم هابيل يمكن للإنسان أن يلجه بالمجاهدة وتغيير مجراه كما عبر عنه. وإذا كان العنف أصيلا في النفس البشرية(قابيل) متشكلا منذ القدم، فإنه يمكن أن يواجه بالتغيير والمجاهدة القائمة على حرية الاختيار والاستطاعة إلى اللاعنف(هابيل).

أما إريك فروم فيرى أن العدوان الدفاعي تدفعه دوافع عضوية مشتركة بين بني البشر، مثل الغذاء، القتال، الفرار، والدوافع الجنسية التي تضمن بقاء الفرد والنوع، والدوافع غير العضوية غير المشتركة: مثل (المحبة، الحرية، التدميرية، النرجسية، السادية[17]، والمازوخية[18]) وهي عواطف مترسخة في الطبع ومبرمجة وفقا للنشوء النوعي[19].

ويلزم من هذا أن العدوان عند إريك فروم وصف أصيل بمفهوم الدفاع المبرر عن المصالح الحيوية

والبيولوجية للإنسان من مثل بقاء الفرد والنوع وما يلزمهما من المأكل والمشرب والمنكح، وعارض بمفهوم التدمير الناشئ عن العواطف المتشكلة من الطبع والبيئة وفقا للنشوء النوعي، وبهذا يكون عزا تشكل العدوان التدميري إلى الطبع دون الغريزة، بقوله:" أن التدميرية والقساوة ليستا غريزتين، بل عاطفتين راسختين في الوجود الكلي للإنسان. وهما إحدى الطرق في جعل معنى للحياة، وهما ليستا موجودتين في الحيوان ولا يمكن أن توجدا فيه، لأنهما بصميم طبيعتهما راسختا الجذور في الوضع الإنساني"[20]. ويبرر هذا المعنى بأن" الناس من ذوي الطبع السادي هم وحدهم الذين ينتظرون الفرصة ليسلكوا ساديا، تماما كما أن الناس من ذوي الطبع المحب ينتظرون الفرصة للتعبير عن محبتهم"[21]. ومن ثم فإن الطبع هو المحدد للسلوك الجلي في الواقع" وأن سمة الطبع سواء أكانت المحبة أم التدمير تدفع الإنسان إلى أن يسلكه بطريقة معينة، وأن الإنسان في تصرفه وفقا لسلوكه يشعر بالرضى، وبالفعل فإن سمة الطبع تخبرنا كيف من شأن الشخص أن يود أن يتصرف"[22].

ومن الأدلة التي تؤكد هذا المعنى، أي أصالة العدوان الدفاعي عند إريك فروم، أنه ليس الهجوم الناجم عن الخوف من تضرر المصالح الحيوية للإنسان وحده الذي يلجأ إليه الإنسان، بل بالفرار أيضا، ويبدو أنه "هو الشكل الأكثر تكرارا من شكلي رد الفعل، إلا عندما لا تكون لدى الحيوان فرصة للفرار فيقاتل ويكون قتاله السهم الأخير"[23] .

وبالتالي يمكن القول إن دماغ البشر قد أنشأ آليات عصبية خلوية تحرك السلوك العدواني (الدفاعي) أو الفرار استجابة لتهديدات بقاء الفرد أو النوع، وأن هذا النمط من العدوان متكيف بيولوجيا ويخدم الحياة[24].

ومما نستشفه بعد صياغة إجابة كل من طه عبد الرحمن وإريك فروم حول فرضية أصالة العنف وطرؤه على سمة بني الإنسان، أن الرجلين يتقطعان في الإجابة عن هذه الفرضية، أما طه عبد الرحمن فيؤكد أن العنف أصيل في بنية الإنسان واستدل بقتل قابيل لأخيه هابيل، لكن إذا صح هذا المعنى في قابيل لماذا لم ينطبق على أخيه هابيل وهما من نفس البطن فكيف تأصل العنف في هذا وتأصل اللاعنف في الآخر ؟ ويجيب عن هذا السؤال طه عبد الحمن نفسه مبينا أن مقتل قابيل لهابيل كان مقدرا وجاء لسن التشريع "بل من أجل أن يعقل الإنسان معنى القانون وما يتضمنه من حدود ويترتب عليه من تصرفات وعواقب"[25] فالجرم الذي أقدم عليه قابيل بهذا المعنى كما عبر

عنه طه عبد الرحمن، جاء من أجل إلغائه من خانة اللامحظور في الأصل قبل التشريع، إلى التشريع والمحظور، لوسمه بالجرم حتى لا يصبح هناك قانون في البشرية يلازمه الفراغ القانوني بحسب تعبيره، قال:" فعالم العنيف القابيلي عبارة عن عالم يلازمه الفراغ القانوني، فكل عنيف يتشبه بقابيل في اعتبار القانون غير موجود أما وأن القانون قد أضحى موجودا فإنه يسعى إلى إلغائه بالمرة"[26] أي العنف الناتج عند قتل قابيل لهابيل.

أما إريك فروم فإلى حد كبير تكون إجابته عن الفرضية الآنفة الذكر وافية ومخالفة جزئيا لما قرره طه عبد الرحمن، فالعنف كما سماه بالعدوان أصيل إذا كان دفاعيا مبررا بحيث يضمن الحفاظ على المصالح الحيوية والبيولوجية للإنسان، وعارض إذا كان ناشئا عن العواطف والطبع المتأثر بالبيئة والمحيط وهو ما أطلق عليه بالعدوان الخبيث والتدميري السادي.

ثالثا: أسباب العنف

يعزو طه عبد الرحمن في فلسفته الائتمانية[27] سبب العنف بين العالم القابيلي والعالم الهابيلي إلى حب التملك، الذي ينتج عنه التَّسَيُّد وهو صورة فاحشة للتملك، بعكس العالم الهابيلي الذي يريد أن يتحمل غيره تبعات التسيد الذي يعتبره عملا كسائر الأعمال، ومن ثم يستبعد من هذا المنطق أن يؤدي العالم الهابيلي إلى حصول العنف، خلافا للعالم القابيلي الذي يعتبر التسيد امتيازا سياسيا فيغلو فيه غلو التسيد في التملك، حتى إذا لم يتوصل إليه أو منع منه، بدأ باللجوء إلى العنف اللفظي، عاملا على خلق الأجواء التي تهيئ للعنف المادي[28].

وهذا ما عبر عنه أيضا إريك فروم بمفهوم **السيطرة**، وفي كتابه من ذلك ما لا يحصى، ومن الأمثلة على ذلك في تفسيره لحياة الحيوانات ما نصه:" وعموما فقد فسرت **السيطرة** الحيوانية بأنها تأمر شرس من القائد الذي يتمتع بامتلاك القوة على بقية الجماعة"[29]. وقال أيضا:" وكنت نتيجة لخبرتي السريرية في العلاج التحليلي النفسي قد توصلت منذ زمن طويل إلى الاقتناع بأن ماهية السادية هي الشغف **بالسيطرة** غير المحدودة وشبه الإلهية على الناس والأشياء"[30]، ويقول أيضا في موضع آخر: "والمشترك بين هذه السادية الثلاث [السادية الجنسية والبدنية والذهنية] هو الشغف بامتلاك **السيطرة** المطلقة وغير المحددة على كائن حي سواء كان حيوانا أم طفلا أم رجلا أم امرأة. وإجبار

شخص على احتمال الألم أو الإهانة ليس التبدي الوحيد مطلقا فالشخص الذي لديه **السيطرة** الكاملة على كائن حي آخر يحوله إلى شيء إلى ملكية. في حين يغدو إلهَ الشخص الآخر"[31]. ومن الأسباب المؤدية لحدوث العنف ما ذكره إريك فروم بناء على مجموعة من التجارب والملاحظات العلمية:

أ. **الازدحام**

وهو الناجم عن اتحاد المصالح في المأكل والمسكن، وهذا ما استنتجه من تجربة أجريت على بعض القرود والظبيات التي جمعها في حديقة للحيوانات مما نجم عنه مجموعة من التصرفات العدوانية بين هذه الحيوانات، وأظهرت الدراسة أن هناك تنافرا كبيرا بين هذه الحيوانات التي تختلف من حيث النوع عندما ضيق عليه الحيز المكاني وخاصة عند ازدحامها الطعام.

ومن خلال هذه التجربة الحيوانية ومحاولة منه لإسقاطها على الإنسان، يطرح إريك عدة أسئلة أكثر عمقا لعله يجد لها إجابات أكثر موضوعية لسبب العنف عند الإنسان من خلال البحث في سلوك الحيوان يقول فيها:" أتوجد حاجة طبيعية إلى الحد الأدنى من الحيز الخصوصي؟ وهل الازدحام يمنع الحيوان من ممارسة حاجته المتأصلة إلى الاستكشاف والحركة الحرة؟ وهل يشعر الحيوان بأن الازدحام تهديد لجسمه فيستجيب له بالعدوان؟"[32]

ومن خلال هذه الفرضية ذكر إريك بعض آراء المفكرين التي تنص بأن هناك على الأقل عنصرين يسببان ويخلقان العدوان عند الحيوان وهما: تقلص الحيز واختلال البنية الاجتماعية للنوع عند إدخال جنس مختلف عن القطيع، أما الضيق المكاني فتوصل أنه يسبب الحرمان للحيوان من ممارسة وظائفه الحيوية والبيولوجية المتمثلة في اللعب وتطوير مهاراته وممتلكاته التي بها ينمو عندما يكون عليه أن يبحث عن غذائه[33]، لذلك بحسب تعبيره كانت الحيوانات التي تعيش في البرية أشد نشاطا وأكثر اهتماما، من الحيوانات التي تعيش في الحديقة، حيث تسمح البرية للحيوانات بممارسة وظائفها البيولوجية وتزيد من نشاطها وقدراتها البدنية والذهنية[34].

لكن إذا كان سبب العدوان لدى الحيوان متوقفا على تقليص الحيز المكاني وادخال نوع مخالف للجنس في هذا الحيز، فهل يصح إسقاط هذه التجربة على الإنسان؟

لكن إريك فروم كان له رأي مخالف لهذه الاستنتاجات إذ يرفض أن يكون السبب الرئيسي للعدوان عند الإنسان هو الازدحام لأن ما حدث في المجتمع الصناعي الحديث هو أن التقاليد والقيم المشتركة

والروابط الشخصية الاجتماعية مع الآخرين قد اختفت إلى حد كبير وليس سبب ذلك الكثافة السكانية ومن الأمثلة التي جاء بها الكيبوتسات[35] التي كانت تعيش فيها الطائفة اليهودية آنئذ التي على الرغم من أنها شديدة الاكتظاظ وليس للفرد إلا حيز ضئيل وخلوة صغيرة ومع ذلك فقد كان فيها انعدام للعدوانية خارق للعادة بين أعضائها، وكذلك بلجيكا وهولندا من أشد بقاع العالم كثافة سكانية ومع ذلك لا يتصفون بالعدوانية وكذلك جزيرة مانهاتن من أكثر الأماكن كثافة بالسكان قبل ثلاثين سنة ولكنها لم تكن آنذاك كما هي اليوم متصفة بالعنف المفرط. وإن أي امرئ عاش في بناية كبيرة ذات شقق سكنية كثيرة حيث تعيش مئات من الأسر معا يعرف أن هناك أمكنة قليلة يكون فيها للشخص الكثير من الخلوة، وأنه قلما يتطفل عليها وجود الجيران الذين يسكنون الدار التي تلي داره في مثل هذا البناء الكثيف بالسكان. وبالمقارنة فإنه توجد خلوة أقل بكثير من قرية صغيرة حيث الدور فيها متفرقة أكثر بكثير، والكثافة السكانية أقل بكثير ففيها يكون الناس أكثر معرفة بعضهم ببعض، ويراقب بعضهم بعضا في حياته الشخصية، ويغتاب بعضهم بعضا وكل منهم في مجال رؤية الآخر دائما، ويصدق الأمر نفسه على مجتمع الضواحي ولو إلى حد أقل بكثير

إن من شأن هذه الامثلة أن تظهر أنه ليس الازدحام في حد ذاته يسبب العدوان، وإنما الأوضاع الاجتماعية والسيكولوجية والاقتصادية، التي في ظلها يحدث الازدحام هي المسؤولة عن العدوان، ومن الواضح أن زيادة السكان المفرطة أي الكثافة السكانية في ظروف الفقر تسبب الشدة والعدوان. وينجم عن هذه الاعتبارات أن كل قياس للازدحام البشري على الازدحام الحيواني ذو قيمة محدودة، فللحيوان معرفة غريزية بالمكان والنظام الاجتماعي الذي يحتاج إليه، وهو يستجيب غريزيا بالعدوان لكي يعالج اضطراب مكانه وبنيته الاجتماعية، وليس لديه سبيل آخر للاستجابة لتهديدات مصالحه الحيوية في هاتين الناحيتين، ولكن للإنسان سبل أخرى كثيرة فهو يستطيع أن يغير البنية الاجتماعية، ويستطيع أن ينشئ روابط التضامن والقيم المشتركة التي تتجاوز ما هو معطى وحل الحيوان لمشكلة الازدحام حل غريزي بيولوجي، وحل الإنسان اجتماعي وسياسي[36].

ب. <u>الإقليمية والسيطرة</u>

ومن الأسباب التي تسبب العدوان عند إريك فروم أيضا مفهوم الإقليمية والسيطرة، وهذا المفهوم

هو من صور العدوانية الحيوانية التي تقول: إن الإنسان تسيطر عليه غريزة الدفاع عن أرضه تلك الغريزة التي ورثها عن أسلافه الحيوانات، وهي إحدى المصادر العدوانية الحيوانية والبشرية، وهذه الفكرة هي التي تروق للكثيرين للقول إن الحرب تسببها قوة هذه الغريزة نفسها.

لكن فروم يغلط هذه الفكرة من أسباب عدة:

أولها: بأن هناك أنواعا من الحيوانات لا تنطبق عليها هذه الفكرة بمفهوم المنطقة الخاصة(الاقليمية) حيث يقول: إن مبدأ المنطقة الخاصة لا يظهر إلا عند الحيوانات العليا كالحيوانات الفقارية والمفصلية وحتى عندها لا تظهر بصورة منتظمة

والسبب الثاني: الجهاز الغريزي الحيواني في الهجوم = التدابير القانونية للإنسان بالكف عن الهجوم. ومن ثم تغدو الغريزة مهملة عندما تتوافر سبل رمزية (التدابير القانونية) أخرى لتعيين حدود أرض وللتحذير "إياك وتجاوز الحدود" والهروب تبدأ أولا بقصد جني المنافع من شتى الأنواع وليس دفاعا من المرء أمام تهديد أرضه[37]. وأما عدم صحة تطابق السيطرة عند الحيوان على سيطرة الإنسان، فأجاب عنها إريك فروم بكون أن ذاك ناجم عن التراتبية المنظمة للجماعة والتي تعطي الحق للذكر الأقوى السبق في الطعام والشراب والجنس، وهي لا توجد عند كل الحيوانات، وهي تؤدي في النهاية إلى وظيفة حفظ الأمن والتماسك داخل الجماعة، ومنع الخلاف الذي يؤدي بحد تعبيره إلى الاقتتال، لكن عند الإنسان يعوض عن هذه السيطرة الناجمة عن القوة الغريزية بالتدابير وآداب السلوك والقوانين المنظمة للحياة العامة[38].

ومن الأدلة التي ساقها أيضا للبرهنة على خطأ فكرة أن الإقليمية والسيطرة التي يتسم بها سلوك الحيوان توجد في سلوك الإنسان، وبأنها سبب في نشوء العدوان، وذلك أن في"التاريخ البشري عندما تصبح الهيمنة مؤسسة ولا تعود مقدرة شخصية كما لا تزال هي الحال في الكثير من المجتمعات البدائية، فليس من الضروري بالنسبة إلى الزعيم أن يكون مالكا دائما لخصائصه البارزة، وفي الحقيقة ليس من الضروري حتى أن يمتلكها فالنظام الاجتماعي يكيف الناس على أن يروا في اللقب أو الزي الرسمي أو أي شيء يمكن أن يكون البرهان على أن الزعيم مقتدر وما دامت هذه الرموز التي يدعمها النظام الملكي موجودة؛ فإن الإنسان العادي لا يجرؤ حتى على سؤال نفسه هل يرتدي الإمبراطور ثيابا"[39].

ج. **إلغاء الآخر ونكرانه**

ينطلق إريك للبرهنة على أن عدم الإحساس أو الشعور بالآخر واعتباره لا شيء من أسباب العنف أيضا، ويضرب مثال على ذلك أيضا منطلقا من تجاربه على الحيوانات، بأن قتل الحيوان الأليف يختلف الناس في ردود أفعالهم فمنهم من لا يلقي له بالا ومنهم من يشمئز، "لكن بالنظر لبعضهم إلى الإحساس بالوحدة عندما يتم الشعور بأن الحيوان كائن حي آخر فقد يكون ثمَّة إحساس شعوري أو لا شعوري بالذنب يرتبط بدمار الحياة، ولا سيما عندما يكون هناك تقمص عاطفي والذي يتجلى في مثل بعض الطقوس التي تقوم بها بعض الديانات".

ومن الأمثلة التي يستدل بها أيضا في هذا التصور في الحياة البدائية فإن حالة الغريب الذي لا ينتمي إلى الجماعة لا يتم الشعور بأنه إنسان مثيل، بل بأنه شيء لا يتماثل مع المرء، والدليل على ذلك بأن الإحجام عن قتل عضو في الجماعة نفسها وكثيرا ما يكون هو أقسى العقاب على الأفعال السيئة هو النفي وليس الموت. في حين أن "المجتمعات الحديثة عندما تريد أن تبرر العدوان وتدفع إليه شعوبها في الحروب، فهي تحاول أن توقظ في شعوبها الشعور بأن العدو لا شيء بالنسبة لها، بل ليس بشرا فلا يدعوه المرء باسمه الصحيح، بل باسم مختلف كما اطلق البريطانيون في الحرب العالمية الأولى على الألمان "الهونيين" وأطلق عليهم الفرنسيون "البوش" وقد بلغ هذا القضاء على إنسانية العدو ذروته مع الأعداء الذين هم من لون مختلف. وقد وفرت الحرب في فييتنام أمثلة كافية للدلالة على ان الكثيرين من الجنود الامريكيين لديهم إحساس قليل بإحساس أعدائهم الفييتناميين ويطلقون عليهم الأشياء القذرة اللزجة وحتى كلمة القتل قد أزيلت باستخدام كلمة الإتلاف. وقد فعل هتلر الشيء نفسه بإطلاقه على أعدائه السياسيين الذين كان يريد القضاء عليهم دون البشر ويكاد يبدو قاعدة أن المرء عندما يريد أن يسهل على الجنود الشعور بأن الذين يجب قتلهم ليسوا اشخاص".[40]

د. **صفات العنيف**

إن العنيف في فلسفة طه الائتمانية يتصف بعدة أوصاف يمكن من خلالها أن يميز العنيف من دونه، فإذا كان إريك ينطلق في تقرير الاستنتاجات والخلاصات حول أسباب العنف وعوامله من

خلال التجارب الحيوانية، فإن طه ليس منه ببعيد، ولاشك أن هذا الأخير استفاد من هذه الدراسات أو اطلع على بعض منها في تقرير إريك لبعض الحقائق، مثل أن العنف سمة من سمات الإنسان لا يشبه الحيوان في شيء منها بسبب قلة إدراك الأخير وكامل إدراكية الأول، قال طه عبد الرحمن: "يعتبر الفكر الائتماني العنف وصفا أخلاقيا يخص الإنسان، ولا يقوم بالحيوان على توحشه، ولا بالطبيعة، على قوتها التدميرية، لأن ذا العنف يدرك أن إتيانه لعمله تصرف مؤذ، مؤثر إتيانه على تركه"[41].

ومن الأوصاف التي يتصف به العنيف في فلسفة طه: أنه جاهل، وظالم، وآمر بامتياز، ومتسلط، ومستشعر بالغربة، ومتملك: أما صفة الجهل، فتتمثل في غياب عواقب عمله عنه، بحيث عند إقدامه على عمله هذا يعمى عنه مآلات تصرفاته، إن بضحيته أو بمصيره هو، فيكون بذلك جاهلا بهذا الوصف بحسب تعبير طه،"إن العنيف يعمى عن مآلات عمله، بالنسبة لضحيته كما بالنسبة لمصيره، فيكون جاهلا"[42] لأنه يمتنع عن" الأخذ بأسباب الاستدلال وعن الدخول في الحوار"[43]

وأما صفة الظلم، فيقع من حيث إيذاء من لا ينبغي إيذاؤه ويكون بذلك متجاوزا لحد من الحدود المتمثلة في هتك حرم الغير[44]، فهو مؤذي" من جهة أن العنيف يوقع الألم بالمعنوف عليه...ومن جهة أن العنيف يخرق القانون وينتهك الحقوق"[45]. ويصور لنا طه هذا الظلم المتمثل في قتل قابيل لهابيل، بأن في هذا انتهاك للإنسانية المعنوف عليه بنزع لباس القيم الأخلاقية التي تحملها الفطرة الإنسانية، وبهذا يكون متعديا لإزهاق حياة الفرد، إلى إهدار الفطرة التي بها حصل تكريمه[46].

أما اتصافه بأنه أمَّار بامتياز، فيتجلى ذلك في اعتقاده وعمله، وهذا ما يراه طه عبد الرحمن فهو "يغيب الآخر ويقطع أسباب التواصل معه حتى يحفظ لنفسه ..رتبة الآمر التي ينزلها، ويقيم غيره في رتبة المأمور...فاعتقاده ليس من سبيل إلى وصله باعتقاد سواه، ولا حتى ترجمته إلى هذا الاعتقاد؛ ولا يمكن نقل اعتقاده إلى الآخر إلا بإخراج هذا الآخر عن اعتقاده، فهو اعتقاد عادم لكل اعتقاد سواه"[47] ولا شك أن طه هنا يعني بهذا الكلام اعتقاد المتشدد المغالي في الدين والاعتقاد.

ومن الأوصاف التي يتصف بها العنيف أيضا، أنه متسلط ومتملك، ويعبر طه عبد الرحمن بأن أمريته التي يتصف بها تجعل منه تسلطيا ومحبا لتملك الأشياء ماديا ومعنويا، أما ماديا فتتجلى رغبته في التملك في ممارسة سلطته في معاملته مع بني جلدته، أما معنويا فتتم عبر جموده على الظاهر أو

التضيق باللجوء إلى الخلاف، جاعلا من الإيمان صورة بلا روح، ولا تخليق بغير روح[48].

ويجعل طه من التنازع أصلا للعنف، وذلك إذ امتزجت صفة التملك والتسلط. وينص على ذلك بقوله:" ولا تخفى الصلة القائمة بين حب التملك والدخول في التنازع، إذ حب التملك سبب في التنازع، والتنازع إنما هو أصل العنف؛ فيلزم أن كل من يطلب التسلط واقع بالضرورة في العنف، لأن التسلط، بموجب انبنائه على المِلك والنزاع، يكون ذا طبيعة عنيفة"[49].

رابعا: دوافع العنف

إذا كان طه تناول صفات العنيف ليجعل لوصفه أمارة يتميز به عن اللاعنيف، فإن إريك بحث في العوامل المؤثرة في سلوكه العدواني، وذلك راجع إلى اهتمامه بالتجارب الحيوانية وتتبعه لسلوكها البيولوجي، ويحدد إريك مجموعة من الدوافع التي ربما تدفع الشخص العدواني للتدمير والبطش، ومن ذلك:

أ. **من دوافع العنف الفعالية:**

يرى إريك أن إحساس الإنسان بالضعف والعجز في هذا العالم هو ما يجعل منه يكتسب القدرة على فعل شيء ما، وهذه الفاعلية هي المؤشر على أنه ليس سلبيا، والبرهان على أنه موجود، ويعبر عن ذلك بقوله: "أنا موجود لأنني أفعل"[50]

يذكر إريك فروم بعض الدراسات التي درست سلوك الطفل حول الدافع الأساسي الذي يجعله دائما في حركية ولعب، بأن سبب ذلك هو وصوله إلى نتائج أفعاله المتكررة والمتغيرة مرة تلو المرة، فالأصوات المختلطة التي يحدثها الطفل أو الأشياء التي يحركها حوله، ولعبه في الوحل وما شابه ذلك من النشاطات، تجعله دائما في فرح لكونه يصل إلى نتائج تلك الفاعلية[51]. ونوبات غضب الطفل وصياحه وعناده والطرق المختلفة التي يحاول بها أن يقاتل البالغين، هي من أكثر تجليات الطفل محسوسية في محاولة أن يكون له تأثيرا في إحداث تغيير أو تعبير عن إرادته، وفي العادة تهزم القوة العليا للبالغ الطفل، ولكن الهزيمة لا تظل من دون عواقب إذ يبدو أنها تفعل الميل إلى التغلب على الهزيمة بأن يفعل بنشاط ما يرغم على تحمله سلبيا وأن يسيطر عندما يكون عليه أن يطيع وأن يضرب عندما يضرب، وباختصار أن يفعل ما هو مكره أن يعانيه وأن يفعل ما منع من فعله، وتتوفر المعطيات

التحليلية النفسية على إظهار أن النزعات العصابية وغيرها...هي في الغالب نتيجة أمثال هذه النواهي المبكرة ...وقد يكون هذا الدافع عاملا مهما مفضيا إلى المكتشفات الكبيرة وكذلك إلى الجرائم الكبيرة.[52]

ب. الإهاجة والإثارة:

ومن العوامل التي يمكن أن تكون دافعا أو عاملا مفضيا إلى العدوان، عامل الإهاجة والإثارة، وينطلق إريك في إقرار هذا العامل من الدراسات التي أقيمت على الدماغ بكونه الجهاز الوحيد بالإضافة إلى القلب الذي لا يتوقف عن النشاط داخل الجسم رغم نومه بأكمله، حيث يظل يستفيد من كمية كبيرة من الأكسجين تبقيه نشطا ومثارا. لذلك كانت حاجة الطفل للإثارة أمرا في غاية الأهمية خاصة للمواليد، ومن الدراسات التي استدل بها على ذلك، حرمان بعض القرود في مرحلة مبكرة من ولادتهم من الاتصال بأمهاتهم فأدى ذلك إلى أذى نفسي فادح بحد تعبيره.

ومن خلال هذه الدراسة توصل إلى أن الإثارة الاجتماعية تشكل أساسا لنشوء الطفل، كما وصل إلى نتيجة مفادها أنه من دون إثارة اجتماعية كافية بما في ذلك الإثارة الادراكية كما هي الحال عند المواليد العميان أو المتعرضين لأخطار نفسية من حبسهم في مؤسسة من المؤسسات مدة طويلة تنشأ عيوب في العلاقات الاجتماعية، وفي اللغة والتفكير المجرد وضبط النفس.

ويذهب إريك فروم إلى أن الكائن البشري في حاجة إلى حد معين من الإهاجة والإثارة كما هو في حاجة إلى الراحة، ويقسم الإثارة إلى قسمين: إثارة بسيطة فيزيولوجية، وإثارة فعالة:

الإثارة البسيطة: تكون ناجمة عن تهديد إنسان بخطر أو حاجة إلى الطعام أو الشراب أو الجنس، فإن استجابة الجسم تكون في هذا المثير الذي سماه البسيط استجابة بسيطة لكونه مجرد شبه انعكاس راسخ لجذور في نظامه الفيزيولوجي وحاجاته الطبيعية.

أما المثير الفعال: فهو يثير الشخص ليكون فعالا، وقد يكون هذا المثير للفعالية رواية أو قصيدة أو فكرة أو منظرا طبيعيا أو شخصا محبوبا. فأي مثير من هذه المثيرات لا يحدث استجابة بسيطة فهي تدعوك إن جاز التعبير إلى الاستجابة بوصل نفسك بها بفعالية وتعاطف بصيرورتك مهتما بفعالية وترى وتكتشف الجوانب الجديدة أبدا في شيئك الذي يكف عن أن يكون مجرد شيء وبصيرورتك أكثر يقظة وإدراكا. وأنت لا تظل الشيء السلبي الذي يفعل فيه المثير، الذي على جسدك أن يرقص

على لحنه إن جاز القول، بل يعبر عن قدراتك بوصل نفسك بالعالم، وتصير فعالا وإنتاجيا والمثير البسيط يحدث دافعا أي أن الشخص يندفع به والمثير للفعالية يؤدي إلى المجاهدة أي أن الشخص يناضل من أجل غاية.

ويضرب إريك فروم أمثلة حية على أهمية المثيرات الفعالة في التأثير على جوانب مهمة من حياة الناس وخاصة في مجال التعليم، ومن ذلك أن قراءة مسرحية أو قصيدة لغوية أو قطعة فلسفية توقظ القارئ وتزيد إدراكه خلافا للرواية التي تكون رخيصة فهي تكون مملة وتجلب النعاس، وهذا التجديد في المثيرات الأكثر فعالية يحل مشكلة التعليم ويكون أكثر فعالية من التعليم الاشتراطي الاكتسابي عبر المثير البسيط الذي يعتاد عليه الطفل.

ومن الأمثلة التي يضرب على صحة هذا المثير وفعاليته في الحياة تلك المثيرات البسيطة التي تقع للمجتمع الأن عن طريق الأفلام والأخبار والإذاعة والصحف والمجالات وسوق السلع، وما تقدمه من إثارات سلبية ناتجة عن المحتوى المقدم من شجع وسادية وتدميرية ونرجسية[53].

ج. **الضجر (الاكتئاب)**

ومن العوامل التي تدفع إلى ارتكاب العدوان أيضا عند إريك الضجر الذي هو صورة من صور الاكتئاب المزمن الذي يحدث للشخص بسبب الفراغ القاتل وعدم الانتاجية والفعالية في المجتمع، وهي حالة غير شعورية بسبب نجاح بعض الناس في التغلب عليها عبر اندماجهم في المجتمع والنشاطات والمشاركات التي يزاولونها طوال اليوم، وإذا ما أحسوا بهذا الضجر أو هددهم فإنهم يتحاشونه بوسائل متعددة تحول دون ظهوره مثل مشاهدة التلفاز أو القيام بنزهة أو الذهاب للحفلات أو الانغماس في النشاطات الجنسية وفي آخر الأمر يستولي عليهم النوم وينتهي اليوم بنجاح دون شعور بأي ضجر. وهذا الشخص في نظر أريك فروم هو شخص إنتاجي ولا يجد صعوبة في العثور على المثيرات المناسبة التي تقيه من الضجر. لكن المشكلة تكمن في الشخص غير الإنتاجي أي لا يزاول أي نشاط اجتماعي أو شخصي، حيث يظل ضجرا حتى عندما يفرج عنه ظاهريا باستخدام بعض العقاقير أو المنشطات النفسية وإن شعر مستخدموها ببعض التوق للحياة فإنها لا تغير طبعهم ومن ثم لا تزال الجذور الدائمة لضجرهم، وهذا الضجر بتعبير أريك لا يتحقق إزالته نهائيا إلا بسلوك

المرء سبيل العمل الصبور المجهد في داخل نفسه باكتساب التبصر ومعرفة كيف يكون مركزا ومدربا. وهؤلاء الأشخاص في نظر إريك فروم أناس ليس لديهم اهتمام بالحياة وكثيرا ما يكونون أمواتا أكثر مما هو أحياء، وهذه الحالة من الضجر الاكتئابي لديهم هي أحد مصادر التدميرية التي بها يتم التفريج عن عواطفهم. ومن الأمثلة التي أوردها في هذا السياق، أن إحدى الفتيات تم إيداعها في مشفى حكومي للأمراض العقلية قد شرطت معصميها مفسرة عملها بأنها كانت تريد أن ترى هل لها دم أم لا؟ وكانت هذه الفتاة تشعر أنها ليست إنسانا، ولم تكن تعتقد أنها تستطيع أن تعبر عن أية عاطفة؛ أو حتى أن تشعر بها. وكان عدم اهتمامها وعجزها عن الاستجابة كبيرين، بحيث كانت رؤية دمها هي السبيل الوحيد الذي تقنع به نفسها أنها حية وأنها إنسان.

وأورد مراهقا آخر كان يقوم بجولات في شوارع المدينة ومعه سكين فوق كمه، وقام بغرزه في أحد المارة الذين يسيرون بجانبه، وأن هذه اللحظة سمحت له أن يعيش تجربة السرور في مراقبة الكرب على وجه الضحية. وقد ساق كذلك كلابا إلى ممشى الحديقة وقتلهم بسكينه لمجرد المزاح، وفي إحدى المرات قال بتأكيد الآن أعتقد أن الكلاب أحست بالسكين عندما غرزتها فيها[54].

خامسا: حلول العنف عند طه عبد الرحمن وإريك فروم

يرى طه عبد الرحمن أنه لا يدفع العنف بالعنف، لأن العنف نفسي بالدرجة الأولى وليس روحيا، ومن ثم فهو غريزة الإنسان ولا يمكن القضاء على هذه الغريزة إلا بالقضاء على الأسباب التي دعت إليه. ويحصر طه عبد الرحمن خمسة أسباب لعدم نجاعة دفع العنف بالعنف وهي كالتالي:

السبب الأول: تبريري: إذا وجه العنف بمثله أو قمع، فإنه يزال ويختفي في الظاهر ويبقى كامنا مع طول الزمن كامنا في الشعور يتحين الفرصة للعودة كل حين لتوقف وجوده على أسبابه وقناعته[55].

السبب الثاني: قانوني: يقوم على أن الدولة لها الحق أن تواجه العنف بالقوة لمشروعيتها، ولأنها تمارسه في إطار حقوقه، لكن سيخرجها في النهاية إلى اللامشروعية فيشتد العنف بخضوعه لمنطق العنف والعنف المضاد.

السبب الثالث: تقني: ويتمثل كما يقول طه أن كلا الطرفين أصبح الآن يمتلك أسباب وسائل العنف ماديا أو معنويا سواء أفرادا أو جماعات، وبالتالي فكلما تقاربت هذه القدرة والاستطاعة أو تساوت فإن حظوظ إيقاف العنف بينهما تصير ضئيلة.

السبب الرابع: سياسي: حيث أن التفاوت القائم بين الدولة والفرد أو الجماعات يوجب على الدولة بحكم هيمنتها أن تدفع هذا العنف في دائرة المشروعية بكل قوة مما يجعله الطرف العنيف مبرر لعنفه وأصلا يبني عليه صحة حقه وأصالة مشروعيته، فيزداد إصرارا عليه.

السبب الخامس: ديني: يقوم على أن استعمال العنف من النظام الحاكم مخالف للدين، لأن الدين يحرم الظلم، وقد يرجعه في النهاية إلى أن هذا النظام في تدبيره لا يراعي التعاليم الدينية مما يجعله مطالب بتطبيقها[56].

أ. **التدرج في إزالة العنف**

يرى طه أيضا أن مواجهة العنف لا تقوم على الفور، بل لابد من اللجوء إلى سنة التدرج في دفعه ومرد ذلك، بأن العنف لم يعد محصورا في نطاق إيذاء المواطن بوصفه صفة سياسية بل تعداه إلى إيذاء الإنسان بوصفه صفة أخلاقية، فأدى ذلك إلى انهيار للقيم الإنسانية في غاية الاعتبار بدءا من قيمة العبادة نفسها التي يتبجح العنيف بأنه يجسدها بأفعاله، فلم تعد عنده للمصلي ولا للمسجد ولا للمصحف حرمة فما بالك بما سواها من حرمات دنيوية.

ويصور طه كيف للعنف المؤذي للإنسان في دفعه عنه يحتاج إلى إعادة بناء قيم الإنسانية المنهارة وقد يستغرق وقتا غير قصير ويتطلب تدرجا مرحليا، في حين أن دفع العنف المؤذي للمواطن يحتاج إلى إرادة سياسية قد لا تستغرق وقتا طويلا متى توفرت هذه الإرادة من النظام[57].

ومن الإصلاحات التي قدمها طه لنبذ العنف، إعادة النظر في فهم الصيغة الآمرية التقليدية التي تربط المكلف بخالقه وببني جنسه من البشر، والذي أطلق عليها اسم النموذج الشاهدي[58] في فهم الدين، ويقوم النموذج الآمري التقليدي على إعطاء الأوامر متجاوزا نصوص الشرع إلى داخل الحياة العامة "بدءا بعلاقة الأخ بأخيه، وانتهاء بعلاقة المسؤول بالمواطن، فلا ترى إلا آمرا ومأمورا حتى في الأعمال العادية، ومعلوم أن العلاقة الآمرية علاقة تسلطية بامتياز، إذ لا تدع للمأمور خيارا ولا حوارا، فتعاقبت أجيال لا تعرف أن تختار ولا تترك من يختار، ولا تعرف أن تحاور ولا تترك من يحاور، حتى ورث الجيل المعاصر نفسية بلا خيرة، وعقلية بلا سعة في مجتمع آمري كله"[59]

ومن ثم يستنتج طه عبد الرحمن أن هذا النصح التقليدي الذي يقوم على الأوامر المتصف بالتسلط

لا يبني الحوار ولا يساعد على الاقناع " فلا تفيد مواجهة العنيف بهذا النموذج الآمري"[60].

ومن الحلول التي اقترحها طه لتجديد أسلوب الآمرية فهم محتواها ومحاولة تغيير تركيب هذا الأسلوب الذي يقوم على أساسين: الجانب القانوني والجانب الأخلاقي، لذلك وجب قلب ترتيبهما فيقدم الجانب الأخلاقي على الجانب القانوني من الأوامر، وتقدم معرفة الآمر على الامتثال للأوامر. ويفهم من هذه العلاقة التي تهدف إلى الاستجابة في النهاية وتحقيق الحوار والاقناع. أن أولوية القيم الأخلاقية أو النموذج الشاهدي يقوم على علاقة أساسية غير التي يتحدد بها النموذج الآمري الذي يقوم على الأوامر ثم الأخلاق. إذ هي علاقة حضور معيار تحقق المرء بالقيم الأخلاقية فيها أن تكون هذه القيم مشهودة في سلوكه. بينما العلاقة الآمرية هي علاقة غياب، إذ أن الأمر بوجه عام يصدر عن الآمر إلى المأمور، لا باعتبار حضور ذاته فيستوي غيابه وحضوره بالنسبة إلى نفوذ أمره، وتسهم خاصية الغياب في إضفاء العنف على العلاقة الآمرية، لأن الآمر الغائب يصدر أمره إلى المأمور وكأنه لا يكترث أن يحضر تنفيذ أمره...فصار ينظر إلى غيره نظرا يغيبه حتى ولو كان حاضرا بين يديه فيأمره وكأن بينه وبينه حجاب[61].

قال طه عبد الرحمن: "لذلك ينبغي قلب هاتين الأولويتين بحيث تصبح الأولوية لمعرفة الآمر، جل وعلا، فتكون الأوامر، إذ ذاك، تابعة لهذه المعرفة، إذ بقدر ما يعرف المرء ربه، يقبل على أوامره من غير شعور بضغط ولا ترهيب، كما تصبح الأولوية للصبغة الأخلاقية للأوامر، فتكون الصبغة القانونية، حينذاك، تابعة لها، إذ بقدر ما يتحلى المرء بالقيم الخلقية التي تدعو لها الأوامر، يقبل على الامتثال لها من غير شعور بقهر ولا إلزام"[62].

ب. <u>طرق اللاعنف في الدعوة</u>

ويقترح طه ثلاثة طرق لمواجهة العنف، وسماها بطرق اللاعنف في الدعوة: وهي المجادلة بالتي هي أحسن، والموعظة الحسنة، والحكمة. ويمكننا أن نلخص هذه الطرق الثلاثة كالتالي:

المجادلة بالتي هي أحسن

- تتضمن (الحوار من خلال تربية العقل؛(الأن القوة(العنف) لا تربي العقل) – و الاقناع- والتحفيز المستمر- ثم التدرج)لنصل في النهاية إلى = دفع الاعتقاد.
- وتسمى هذه الطريقة الأولى بـ(رتبة التفكير).

الموعظة الحسنة

- تتضمن (تذكير شاهدي بالقيم+ أخلاق القول تصدق أخلاق الفعل+ النظر في المقاصد العليا) للوصل إلى = ترك قابلية العنف إلى حين.
- وتسمى هذه الطريقة الثانية بـ(رتبة التذكير).

الحكمة

- تتضمن (تخليق إنسانيته أو تلطيف عبر نقله(من تملك إلى الائتمان(الائتمانية) ومن التسيد إلى العبودية لمولاه(العبودية) ومن أنه مسلم مخالف لغيره إلى أنه إنسان أخ للإنسان(الإنسانية) من منازعة غيره إلى نفسه(الأخلاقية) ومن مواجهة العالم بالأوامر إلى مواجهته بالأخلاق من النظر الأشيائي إلى النظر الأسمائي (الاسمائية) و(الاعتراضية) أي الاعتراض على الذات).
- وتسمى هذه الطريقة الأخيرة بـ(التغيير).

ج. <u>أريك ومواجهة العنف</u>

إذا نظرنا إلى إريك فروم فإننا نجده يواجه العنف العدواني برؤية مختلفة عن رؤية طه عبد الرحمن، فهو يرى أن الشرط الأساسي لتقليل العنف هو تخفيض العوامل الواقعية التي تحركه، عبر إحداث تغييرات اجتماعية في الحياة العامة، ومن ذلك:

ألا يهدد الآخرون الأفراد ولا الجماعات: ولتحقيق هذا الشرط يرى إريك فروم توفير أسس مادية تضمن الحياة الكريمة لكل الناس، والحد من سيطرة جماعة على أخرى بأي شكل من الأشكال. ولتحقيق هذه الغاية، اقترح إريك إنشاء نظام يختلف في الإنتاجية والملكية والاستهلاك القائم حاليا، وهذا يعني زوال الطبقات الحاكمة المتسلطة على الحياة العامة. وانطلاقا من التجارب التي أجراها على بعض الحيوانات داخل حديقة الحيوان، اقترح إعطاء الإنسان حرية كاملة مخالفة للظروف التي تعيشها الحيوانات داخل حديقة الحيوانات، حتى يتم إزالة كل أشكال السيطرة والاستغلال،

وبحسب تعبيره فإن إحداث هذه التغييرات الاجتماعية، سوف تفضي إلى نشوء تفكير نقدي مستقل وبالتالي تخفيض النرجسية الجماعية، وزوال الشقاء والرتابة والكدر والعجز، وتحويل النظام الاجتماعي من توجه السيطرة والملكية والسلطة والتملك والادخار، إلى التقاسم التي ستجلب الدرجة العليا من المشاركة النشيطة والمسؤولية من كل شخص بدوره عاملا أو مستخدما ومواطنا في أي نوع من المهمات.[63]

خاتمة

قبل الشروع في عرض خاتمة البحث، أعرض بعض الاستنتاجات التي توصلت إليها، والتي تبرز وجه الشبه في معالجة ظاهرة العنف عند كل من طه عبد الرحمن وإريك فروم:

- توظيف رمز **قابيل وهابيل** للبحث في ماهية العنف وتاريخ نشأته عند طه عبد الرحمن، نجده إريك فروم يوظفه في كتابه أكثر من مرة، ومن ذلك قوله:" أن الأذى قد وقع في يوم من الأيام. يبدو أن للحسد الجذر نفسه، **فقابيل** لم يستطيع أن يتحمل أن يرفض ويُقْبَل أخوه. وقد كان هذا الرفض اعتباطيا ولم يكن في مستطاعه أن يبد له، وهذا الظلم الأساسي أثار مثل هذا الحسد بحيث لا يمكن أن يزال السبب إلا بقتل **هابيل**"[64]. وقال في موضع آخر: "إن الإنسان الشرير والتدميري بكل معنى الكلمة؛ لابد أن يحمل علامة قابيل بصورة ملحوظة جدا بحيث يمكن لأي شخص أن يتبين تدميريته من بعيد"[65].
- لقد وظف طه عبد الرحمن مفهوم **الاقتتال** أكثر من مرة، كما وظفه أيضا إريك فروم وبشكل متكررا، ومن ذلك قوله:"ومن المفيد أن نلاحظ، بالنظر إلى البحث السابق في الازدحام، أنهم يذكرون عدم ملاحظتهم **الاقتتال** بين أفواج القرود الكلبية التي تلاقت عند الغدير"[66]، وقال أيضا: "وبمقدار ما توجد السيطرة فإنه ينطبق عليها التعليق الذي وضعته فيما يتصل بالإقليمية. وهي تؤدي وظيفة تقديم الأمن والتماسك إلى الجماعة ومنع الخلاف الذي يؤدي إلى **الاقتتال** الخطير"[67] وقال أيضا: "ولكن العنف والخوف من العنف موجودان ويحدث **الاقتتال**"[68].
- استعمال طه عبد الرحمن لبعض المفاهيم من مثل **التملك** و**التسلط** و**السيطرة**، نجده أيضا عند إريك فروم عندما ناقش مسألة أسباب السادية والعدوانية حيث قال:" وإجبار

شخص على احتمال الألم أو الإهانة ليس التبدي الوحيد مطلقا، فالشخص الذي لديه **السيطرة** الكاملة على كائن حي آخر يحوله إلى شيء إلى **ملكية**. في حين يغدو إلهَ الشخص الآخر. وفي بعض الأحيان يمكن أن تكون السيطرة مسعفة، وفي تلك الحالة يمكن أن نتحدث عن سادية محبة للخير. كما يجد المرء في الأحوال التي يحكم فيها أحد الأشخاص شخصا آخر من أجل خير الآخر، وهو في الحقيقة يعمل على إنجاحه في الكثير من النواحي، باستثناء أنه يبقيه في حالة عبودية إلا أن السادية في جلها سيئة النية. **فالسيطرة** الكاملة على إنسان آخر تعني شله وخنقه وإحباطه"[69]

- إن الأفكار وليدة زمانها: لعل ما جعل إريك فروم يكتب كتابه التدميرية البشرية جاء بسب تأثره جراء الحرب العالمية الأولى والثانية، وما خلفتاه من دمار يرجع بسبب –في رأيه- إلى العنف والقتل والاقتتال، وخاصة ما أحدثه هتلر في زمانه، مما جعله يخصص له جزءا كاملا من كتابه التدميرية البشرية، حيث يدرس فيه سيرته والأوضاع التي عاش في ظلها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وبيئيا وكيف كانت هذه الأوضاع مؤثرة في حياته وجعلت منه ساديا ومتسلطا. وفي المقابل نجد طه عبد الرحمن هو الآخر متأثرا أيضا بأحداث 16 ماي 2003 التي وقعت في المغرب بمدينة الدار البيضاء آنئذ، بسبب التطرف الديني والتشدد والتضيق في فهم النص والواقع والاقتصار على ظاهر النص دون النظر إلى بعده القيمي والكوني والمقاصدي. فلعل هذا التشابه في دوافع الكتابة عن ظاهرة العنف، والتقارب في توظيف المفاهيم يمدنا بمؤشرات تظهر لنا جليا استفادة الأخير من المتقدم.

ويمكن القول ختاما، إن دراسة ظاهر العنف عند كل من طه عبد الرحمن وإريك فروم وإن أظهرت لنا بعض التقارب في المفاهيم والرموز التي تم توظيفها بشكل متكرر، فضلا عن تقارب دواعي الكتابة عن الظاهرة بسبب أحداث العنف، لكن تبقى المقاربة العلمية مختلفة تماما، حيث نجد طه عبد الرحمن ينطلق من مقاربة دينية تحليلية تاريخية لمعالجة الظاهرة، بينما ينطلق إريك فروم من نظرية النشوء والتطور لداروين علاوة على ذلك استناده على التجارب السريرية للحيوانات وعلم النفس التحليلي.

ومهما يكن فإن العنف عند كل من طه عبد الرحمن وإريك فروم، يشكل سمة مميزة للإنسان عن غيره من الكائنات التي تلجأ للعنف المبرر إما دفاعا أو غاية، أما دفاعا فتعددت مظاهره بين الفرار والهجوم المتكيف بيولوجيا بحسب تهديد مصالحه الحيوية، أما غاية فيتمثل في اشباع رغباته الغريزية من الطعام والشراب والجنس، وبهذا ينتهي العنف عند الحيوان بمفهوم إريك بتحقيق الغاية وضمان البقاء الفرد والنوعي. وينتهي عند طه عبد الرحمن بالتملك والسيطرة على الأشياء.

في حين أن العدوان عند الإنسان لا يتوقف عند تحقيق غاياته البيولوجية، بل يتعداه إلى البطش والتنكيل غير المبرر، و ينقسم العدوان عند الإنسان بصفة عامة إلى قسمين: عدوان دفاعي يشترك فيه مع الحيوان في كل ما يتعلق بضمان استمرار واشباع الرغبات الحيوية البيولوجية، وعدوان تدميري تشكله الطباع الاجتماعية التي يعيشها الإنسان داخل بيئته ضمن المحددات الاجتماعية والثقافية التي تؤطر الجماعة، بالإضافة إلى العوامل الأخرى من مثل إثبات الوجودية والإقليمية والإثارة ونسبة الضجر الاكتئابي...الذي يتعرض له الفرد داخل المجتمعات المتسلطة والمتملكة، وعبر النظام التراتبي في الجماعة، التي لها دورا كبير في تولد العنف وتأجيجه وتطوره.

إحالات البحث

[1]- تأليف مجموعة من الباحثين الفرنسيين، المجتمع والعنف. منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الثالثة، 1993.

[2] - الدكتور طه عبد الرحمن: مفكر وفيلسوف مغربي، ولد بمدينة الجديدة سنة 1944م، ولا يزال على قيد الحياة. أستاذ مناهج المنطق وفلسفة اللغة العربية والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط. وأستاذ زائر بعدة دول عربية. تقلد عدة مناصب أكاديمية، وحاصل على جائزة المغرب في العلوم الإنسانية لسنة 1988 عن كتابه" في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" وحاصل على جائزة الدراسات الإسلامية للإيسيسكو لسنة 2006 عن كتابه" سؤال الأخلاق". له عدة دراسات ومؤلفات في المنطق والفلسفة واللسانيات والإسلاميات، بالإضافة إلى الكتابين المذكورين والكتاب القيد الدراسة، له أيضا: " اللغة والفلسفة" و"تجديد المنهج في تقويم التراث" والحق العربي في الاختلاف" و "بؤس الدهرانية، نقد الفصل بين الأخلاق والدين". أنظر إلى: موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية. www.habous.gov.ma

[3] - الدكتور إريك فروم **Erich Fromm**: فيلسوف ألماني وعالم نفس، ولد في مدينة فرانكفورت سنة 1900م، درس علم الاجتماع وتعلم التحليل النفسي في جامعة ميوتيخ. توفي سنة 1980م. له عدة مؤلفات من بينها: " اللغة المنسية مدخل إلى فهم الأحلام والقصص الخيالية والأساطير" و"الدين والتحليل النفسي" و"أزمة التحليل النفسي" و"الخوف من الحرية". أنظر موقع: www.universalis.fr

[4] - طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى سنة 2017. ص:9

[5] - المرجع نفسه، ص:9. بتصرف.

[6] - المرجع نفسه، ص:43.

[7] - المرجع نفسه، ص:95.

[8] - مفكر ألماني، وأحد مؤسسي علم الاجتماع، من أعماله المشهورة كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية".

[9] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:37-40. بتصرف

[10] - إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق سنة 2006، ج:32/1. بتصرف.

[11] - وهو وصف للذة الجنسية التي يتم الوصول إليها عن طريق إلحاق أذى جسدي من قبل طرف على طرف آخر مرتبطين بعلاقة رضائية.

[12] - إريك فروم، مرجع سابق، ج:444/2.

[13] - المرجع نفسه، ج:451/2. بتصرف.

[14] - المرجع نفسه، ص:34.

[15] - المرجع نفسه، ص:33.

[16] - المرجع نفسه، ص:35. بتصرف.

[17] - السادية: مفهوم يستعمل لوصف اللذة الجنسية التي يتم الوصول إليها عن طريق إلحاق الأذى بالغير، وهذا الأذى قد يكون نفسيا أو بدنيا أو جنسيا.

[18] - المازوخية: هي المتعة أو اللذة التي يصل إليها الشخص الذي يُمَارَسُ عليه التعذيب، بحيث أن صاحبها لا يصل إلى قمة اللذة إلا بالاستسلام للغير بتعذيبه جسديا أو جنسيا أو نفسيا بالإهانة وغيرها.

[19] - المرجع نفسه، ج:135/1.

[20] - المرجع نفسه، ج:137/1.

[21] - المرجع نفسه.ج:137/1.

[22] - المرجع نفسه، ج :147/1.

[23] - المرجع نفسه، ج:164/1.

[24] - المرجع نفسه، ج:167/1. بتصرف

[25] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:44.

[26] - المرجع نفسه، ص:44 بتصرف.

[27] - تنبني فلسفة طه عبد الرحمن الائتمانية على ثلاثة مبادئ وهي :الشهادة وهي تقابل مبدأ الهوية عند أرسطو الذي يرى أن الشيء هو نفسه، أما مبدأ الشهادة عند طه عبد الرحمن فيقوم على أن الشيء هو هو متى شهد عليه غيره فتجعل هذه الشهادة من الإنسان يستعيد فطرته محصلا حقيقة هويته ومعنى وجوده بدأ بشهادة الإنسان بوحدانية الله في العالم الغيبي والمرئي وشهادة الخالق على هذه الشهادة والانتهاء بشهادة الذات على الآخرين وشهادة الكائنات الأخرى، فهو يرى أن كل الموجودات تتمتع بحق الشهادة.

المبدأ الثاني: الأمانة وهو مبدأ يقابل مبدأ عدم التناقض الذي تأخذ به فلسفة أرسطو في الأشياء الذي يقضي بأن نقيض الشيء هو نفيه، ولقد أضاف طه عبد الرحمن إلى هذا المبدأ المسؤولية التي تحيل إلى أن العقل المسئول لا يمكن أن يكون ضارا للوجود عكس العقل الغير المسئول الذي يعتبر إنتاج ما يضر أو ما لا يضر في منزلة واحدة دون أن يردعه رادع من إنتاج ما يضره ووجوده.

المبدأ الثالث: هو التزكية ويقابله مبدأ الثالث المرفوع الذي يقضي بأن لا وسط بين النقيضين فإما ناجح أو راسب لا ثالث لهما وهذا ما يطلق عليه بالثالث المرفوع وجوبا وعقلا، ويضيف إلى هذا المفهوم طه عبد الرحمن من خلال مبدئه متى كان العمل مطلوبا بدأ من الجوارح(أعمال خارجية) وانتهائنا بأعمال القلب(أعمال داخلية)، فلا خيار للإنسان في الفلسفة الائتمانية إما أن يأتي بالعمل الذي يزكي به نفسه وإما أن يأتي بالعمل الذي يدسيها، فإما تزكية أو تدسية، فلا ثالث لهما.

وخلاصة القول أن الفلسفة الائتمانية عند طه عبد الرحمن تنبني على العقل المؤيد لأنبنائه على العقلانية القرآنية، عكس الفلسفة العقلانية الصرفة التي تنبني على العقل المجرد وحده. المبادئ العقلية الأولى للفلسفة الائتمانية عند طه عبد الرحمن، خالد مخشان، مقال نشر بموقع "الحوار المتمدن" سنة 30/10/2014، بتصرف.

[28] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:19. بتصرف

[29] - إريك فروم، مرجع سابق، ج :195/1.

[30] - المرجع نفسه، ج:267/1.

[31] - المرجع نفسه، ج:451/2.

[32] - المرجع نفسه، ج:178/1.

[33] - المرجع نفسه، ج:179/1، بتصرف.

[34] - المرجع نفسه، ج:180/1، بتصرف.

[35] - مستوطنات زراعية وتجمع سكاني تعاوني يضم جماعة من المزارعين الذين يعملون ويعيشون سويا، وهي إحدى المؤسسات التي اعتمدتها الحركة الصهيونية بفلسطين

[36] - إريك فروم، مرجع سابق، ج :184/1.بتصرف

[37] - المرجع نفسه، ج :192/1. بتصرف.

[38] - المرجع نفسه، ج :195/1.بتصرف.

[39] - المرجع نفسه، ج:196/1.

[40] - المرجع نفسه،ج:203/1. بتصرف.

[41] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:33.

[42] - المرجع نفسه، ص:34.

[43] - المرجع نفسه، ص:42

[44] - المرجع نفسه، ص:34، بتصرف.

[45] - المرجع نفسه، ص:42.

[46] - المرجع نفسه، ص:46.

[47] - المرجع نفسه، ص:73-74، بتصرف.

[48] - المرجع نفسه، ص:78، بتصرف.

[49] - المرجع نفسه، ص:79.

[50] - إريك فروم، مرجع سابق، ج:365/1.

[51] - المرجع نفسه، ج:366/1.

[52] - المرجع نفسه، ج :367/1.

[53] - المرجع نفسه، ج:376/1.

[54] - المرجع نفسه، ج:396/1، بتصرف.

[55] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:134

[56] - المرجع نفسه، ص: 136. بتصرف.

[57] - المرجع نفسه، ص:139، بتصرف.

[58] - والداعي إلى اختياره لهذه التسمية هو أن الحق سبحانه وتعالى ليس آمرا لنا فيما أمرنا به فحسب بل هو أيضا شاهد لما نأتي منه كيف يأتيه، بحيث يتعين على المأمور، لحظة امتثاله لأمره سبحانه أن يراقب نظر الحق إليه إذ ينظر إلى عمله كما ينظر إلى قلبه

[59] - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص:70-71.

[60] - المرجع نفسه، ص:71.

[61] - المرجع نفسه، ص: 72-73. بتصرف.

[62] - المرجع نفسه، ص:138-139.

[63] - إريك فروم، مرجع سابق، ج:1/336-339. بتصرف.

[64] - المرجع نفسه، ج:2/12.

[65] - المرجع نفسه، ج:2/238.

[66] - المرجع نفسه، ج:1/185.

[67] - المرجع نفسه، ج:1/195.

[68] - المرجع نفسه، ج:1/244.

[69] - المرجع نفسه، ج:2/451.

مراجع البحث

1. طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى سنة 2017.
2. إريك فروم، تشريح التدميرية البشرية، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق سنة 2006.
3. تأليف مجموعة من الباحثين الفرنسيين. المجتمع والعنف.- بيروت، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، 1993.
4. المبادئ العقلية الأولى للفلسفة الائتمانية عند طه عبد الرحمن، خالد مخشان، مقال علمي نشر بموقع "الحوار المتمدن" سنة 30/10/2014.http://www.ahewar.org/debat/nr.asp
5. موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية: http://www.habous.gov.ma.
6. موقع الموسوعة العالمية: www.universalis.fr.